تجربة في التعلم عبر الدراما

عبير العسود

هذا ما كان

قبل سنة واحدة من الآن، لم أكن أكترث كثيراً بتحليل المعاني المتعلقة بمفهوم الدراما وتمييزها، كان فهمي الخاص للدراما أنها فن التمثيل لا أكثر ولا أقل. والتمثيل بالنسبة لي هو فن التعبير عن التجارب الإنسانية عبر أدوار من صلب التجربة، مع كل ما يتطلبه الدور من فعل وإحساس، والفاعلون يتم اختيارهم بطريقة ما ليؤدّوا أدوارهم المرسومة سلفاً أمام الجمهور. أيضا ثمة توقعات مسبقة لنتائج لهذا الفعل. ونظراً لترادف المفهومين عندي، إذاً الدراما هي أيضاً ستكون كذلك.

الآن الأمر مختلف

لقد تغيرت المفاهيم، ماذا حدث وكيف؟

وجهت دعوة لي لحضور يوم المنتديات الذي عقد في مدينة رام الله برعاية مركز القطان للبحث والتطوير التربوي في أيار من العام 2006، تمت في هذا اليوم مناقشة لتجارب تطبيقية عرضها المعلمون في مجال الدراما في التعليم، لقد أحدثت هذه التجارب وما تلاها من حوارات انقلاباً فكرياً في الكثير من الأمور في شخصيتي الفكرية والتربوية بشكل عام وفي فهمي لموضوع الدراما بشكل خاص.

التجربة الأخرى التي ساعدتني على تكوين فهم جديد لموضوع الدراما في التعليم هي المساقات التي نفذها مركز القطان في الخليل، لقد اشتركت في مساق الدراما في التعليم كمحاولة مني للغوص أكثر في هذا الموضوع الذي أحببته.

على إثر هذا اليوم الدراسي وما تضمنه من مساقات، تكونت لدي بدايات تطور وتغير مفاهيمي، كذلك بدأت تتمحور أسئلة جديدة في ذهني عن دوري كمعلمة، وعن الأدوات والطرق التي استخدمها في عملية التعليم، باحثة عن إجابات هنا وهناك، ومن خلال الاطلاع على تجارب الآخرين، أدركت ما يلي:

- أن الدراما ليست نصاً محدداً بأدوار مرسومة سلفاً وأشخاص نقوم باختيارهم مسبقاً، بل من الممكن أن يكون أي موضوع تعليمي نصاً دراميا وأي طالب يمكن أن يلعب دوراً في الدراما الصفية، مع الأخذ بعين الاعتبار الفروق الفردية بين طالب وآخر.
- تمتلك الدراما قدرة هائلة على إثارة دوافع التحليل والاستكشاف والنقد لمن ينخرط فيها. وعليه، فإنها أثبتت أهليتها لأن تكون أسلوباً مميزاً ورائعاً للتعلم إذا ما استخدمت في السياق التربوي.
- إن الارتكاز على قاعدة "لا تخرجوا عن النص ولا تحاولوا التفكير بأكثر مما انتم مقيدون به" تحد من الإمكانيات الهائلة التي تمتلكها الدراما. وبالتالي، إذا أردنا أن نخلص الدراما من صفة الجمود يجب علينا كمعلمين أن لا نقيد الطلاب بنصوص جاهزة.
- كل عنصر نستخدمه في الدراما له معنى ودلالة خاصة به، يؤدي بالمتعلم إلى مستويات إبداعية أخرى بربطها بالواقع تارةً أو بالتحليق عبرها في فضاء الخيال الواسع تارةً أخرى، وعلى كلتا الحالتين فإننا سنجني المزيد من الفوائد التعليمية.

يمكن اعتبار الدراما وسيطاً للتعلم يحتوي بداخله أساليب متعددة ومتنوعة لكل منها أهمية تقتضي منا وقفة طويلة لإبرازها. فهي تساعدنا على إخراج المتعلم من جو التعليم الرتيب، فباستخدام المرئي والمسموع من صور وموسيقى وغيرها لإيصال فكرة تعليمية إلى الطالب يتم كسر حالة الجمود الصفي وتعميق فهم المتعلم للأفكار في سياقها الطبيعي.

وإذا ما أردنا أن نتحدث عن الآثار الشخصية لاستخدام الدراما في التعليم، فإن إمكانياتها في هذا المجال لا تنحصر. فهي تساعد الطلاب على التعبير البناء عن أنفسهم ومكنوناتها، هذه المكنونات التي نجهلها أغلب الأحيان، أو لا نعرف عنها الكثير كمعلمين. يجب أن لا ننسى أن الصف عبارة عن (30-40) نفسية مختلفة يمكن لكل منها أن تحمل إبداعاً أو ميزة خاصة، والدراما تساهم في مزيد من التطوير والإبداع الخلاق لهذه الميزات لديهم.

إن قناعتي الشخصية بضرورة التجديد في العمل التعليمي، إضافة إلى إعجابي بما شاهدته من تجارب درامية لمعلمين دفعاني إلى خوض تجربة في التعلم عبر الدراما، وقد اخترت قصة بائعة الكبريت كمقترح درامي لأبني عليها تجربتي، فهذه القصة من جانب هي درس منهجي نعلمه في مدارسنا، ومن جانب آخر فإن إمكانيات الدراما فيها واسعة جداً. هذا إضافة إلى قربها من الواقع الحياتي.

إن التجربة الدرامية التي أنفذها تقوم على المحاور التالية :

1 . لعب الأدوار .
2 . استكشاف مواقف تعليمية : تحليل طبيعتها ودوافعها وغاياتها . وتوظيفها تعليمياً واجتماعياً .
3 . نشاطات كتابية تعبيرية .

أما الصف الذي اخترته فهو صف متنوع الأعمار ذكوراً وإناثاً، وفي بيئة خارج المدرسة، ساعية من وراء هذه الخطوة إلى إضفاء جو الحرية في بيئة التعلم .

التهيئة الموسيقية

لأن قصة بائعة الكبريت هي قصة حزينة فقد اخترت أن أهيئ للدرس بموسيقى تساعد على خلق جو ومزاج يساند الأجواء الحزينة للقصة . ثم طلبت من المشاركين أن يعبروا عن الانطباعات الذاتية التي تركتها الموسيقى في نفوسهم؛ سواء بالكتابة أم بالرسم أم بالتعبير الشفوي .

وفي أثناء ذلك، كنت أراقبهم وهم يكتبون ويرسمون، وقد خرجت بالاستنتاجات التالية :

- إنهم أصبحوا أكثر هدوءاً من قبل .
- إنهم كتبوا انطباعات تعكس مزاجاً حزيناً، وهذا باعتقادي راجع لنوعية الموسيقي التي سمعوها .
- إن غالبيتهم اختاروا التعبير بالرسم والألوان . وعبروا عن انطباعاتهم شفوياً .

اخترت إحدى الرسومات لتكون مدخلاً لسرد القصة .

سرد الحكاية

على وقع الأنغام الموسيقية نفسها، بدأت سرد القصة كما جاءت في النص مراعية كل ما من شأنه أن يستقطب اهتمام المشاركين، من حركات وأفعال وتغيير في طبقات الصوت، وبما يتلاءم مع أحداث القصة . وفي أثناء ذلك كان التلاميذ يستمعون .

العلاقات الأسرية	
دور المعلم	دور الأب
دور التلاميذ	أفراد في الأسرة : أب، أخ، أخت
الأهداف	استكشاف العلاقات الأسرية في بيت فقير
السياق	نحن لا نعرف الكثير عن أسرة بائعة الكبريت، لأن النص لم يخبرنا الكثير عنها، كل ما نعرفه أنها تعيش مع أبويها، وأن أباها قاس . ■ نقترح عدد أفراد العائلة : (أب، أم، أخ . . . .) . ■ نلتقط صوراً ثابتة لوضعية العائلة في ساعة الصباح لحظة الإفطار . ■ نرتجل حواراً بين الأب وابنته (بائعة الكبريت) قبل مغادرتها المنزل . ■ كيف يمكن أن تتدخل الأم؟ وما هو دورها؟

بائعة الكبريت تجوب الشوارع	
دور المعلم	التوجيه والإرشاد
دور التلاميذ	شخصيات في المشهد (بائعة الكبريت، عائلة ثرية من ثلاثة أفراد يتسوقون) .
الأهداف المباشرة	عمل مشهد درامي
الغايات التعليمية	■ استكشاف التصنيف الطبقي في المجتمع . ■ استكشاف مفهوم عمالة الأطفال وحقوقهم . ■ تكوين آراء شخصية اتجاه القضيتين السابقتين .
السياق	طفلة حافية ممزقة الملابس، تحمل سلة فيها علب كبريت، تمر في سوق مزدحم، تنادي الناس أن يشتروا بضاعتها، لا أحد يلتفت إليها . إمكانيات الحوار بين بائعة الكبريت وأفراد العائلة الغنية، ماذا يمكن أن يقال هنا؟
ملاحظات	■ أحيانا نحتاج إلى إعادة المشهد مرات عدة، ومع تلاميذ جدد، بناء على اقتراحات يقدمها التلاميذ أنفسهم . ■ يدون المعلم الأسئلة الاستكشافية على السبورة، ويتم مناقشتها مع التلاميذ .

حوار مرتجل بين بائعة الكبريت والولد الشقي الذي سرق حذاءها	
دور المعلم	مراقبة، توجيهات
الأدوار	بائعة الكبريت، الولد الشقي
الأهداف	1. تقوية القدرة على الارتجال. 2. تقديم وجهات نظر والدفاع عنها. 3. البحث عن البدائل الممكنة لحل مشكلة ما.
السياق	بائعة الكبريت فتاة ضعيفة، لم تحاول استخدام وسائل كثيرة لاسترجاع حذائها من الولد الشقي، لقد اكتفت بالطلب منه أن يعيد لها الحذاء لكنه رفض، وسارت هي حافية في البرد. 1. ما هي البدائل المتاحة التي يمكن أن نستخدمها لاسترجاع الحذاء؟ 2. ما الحوار الممكن بينهما في هذه الحالة؟

نشاط: كتابة تعبيرية (وصايا بائعة الكبريت)

السياق: ماذا حدث مع بائعة الكبريت ليلة عيد رأس السنة؟ وماذا فكرت؟ من هم الأشخاص الذين خطروا ببالها؟ الأب؟ الأم؟ الجدة... الخ، نختار شخصاً من هؤلاء، ونكتب له رسالة باسم بائعة الكبريت.

نموذج من أعمال التلاميذ

أمي الحبيبة: اكتب وصيتي بدمي ودمع عيني، أنا كنت أتمنى أن أعيش حياتي حياة عادية مع أب حنون، أعيش حياة خالية من الظلم والقسوة، أعيش حياة الأطفال الدافئة، وأنا أبيع الكبريت في أحضان الثلج والبرد. وأنا أعرف أن حضن الوالدين أدفأ من بركان ثائر، يقولون إني مت من البرد، لا، بل مت من القهر والحزن. وأنا سعيدة لأني ذهبت إلى جوار جدتي.

جنازة رمزية	
الأهداف	استكشاف المشاعر الذاتية اتجاه موت الطفلة.
السياق	يشترك في هذا النشاط جميع الصف. يتم تصميم تابوت رمزي، ويغطى بقطعة سوداء، ويوضع بداخله دمية. تسير الجنازة مع موسيقى جنائزية. يلقي كل تلميذ نظرة أخيرة على الجثمان ويودعها بكلمة أخيرة.

مشهد: حفل التأبين (ذكرى الأربعين لبائعة الكبريت)	
دور المعلم	توجيهات
دور التلاميذ	شخصيات في أدوار: الطفل الشقي سارق الحذاء، صديقتها بائعة الكعك، الأب.
الأهداف المباشرة	استكشاف العلاقات الإنسانية: الصداقة، الأبوة، الأخوة... الخ.
الغايات التعليمية	استكشاف دور الأب في الأسرة.
السياق	ماذا يمكن أن يقول كل شخص من السابقين في هذه اللحظة؟

محاكمة المسؤولين عن موت الطفلة	
دور المعلم	يمكن للمعلم أن يؤدي دور قاضٍ أو محامٍ.
دور التلاميذ	شخصيات في أدوار: حرس في المحكمة، الأب، رئيس البلدية، قاضٍ، شهود، محامٍ، مدير المدرسة، جمهور في المحكمة..
السياق	من المسؤول المباشر عن موت الطفلة؟ ومن المسؤول الأكبر؟ ومن نحاكم؟ هل هو الأب أم المجتمع؟ ولماذا؟ ومن يتولى رفع القضية إلى المحكمة؟ وضد من؟

عبير العسود
منتدى معلمي إذنا